﴿ خطرات افكار ﴾

(١)

يتدرج الانسان من مبدأ نشأته في طريق المدنية ، ويحتاج في اول امره الى لوازم قليلة للحياة ، وكلما ارتقى وبلغ درجة اسمى كثرت مطالبه واحتاج الى مال اكثر يتوصل به الى الحصول على حاجات العيش والارتقاء فلما عرف ذلك دعاة الاصلاح واولياء الامور في الامم الراقية ابانوا لافراد هاتيك الامم ضرورة الاقتصاد ونشروا بينهم الاسفار التي تظهر منافعه باجلى مظاهرها ، وتفرغ قوم بينهم لدراسة فوائده والسعي في ادخال فوائد هذه الصفة في عقول النشء ، وقد كان السعد حليف تلك الامم الاخذة بذلك في جميع ادوار حياتها اذ سار افرادها على هذه القوانين التي وضعت لهم ولم يحيدوا عنها ، وبقي الكل في عيش رغد وحياة طيبة ، حتى ان المعسر منهم اصبح اذا حل به عسر يجد له منقذاً منه بما اقتصده من المال ، وان هو اصابه مرض من الامراض او حل به داء من الادواء تمكن بما اقتصده من اجوره ان يستطب ، فينقه من مرضه متى كان له اجل ممتد ويدوم عيشه مقروناً بحسن الصحة والنعيم

ونحن لو جعلنا نحصي ما للاقتصاد من الفوائد الكبيرة لاحتجنا الى وقت طويل حتى يمكننا ان نقنع من نرشده اليه ، ولا شك انه من جوالب السعادة والفلاح في الامم : فبه يتيسر للعامل ان يدخر على ممر الايام مالا

وافراً ينفقه وقت الحاجة وعند الضرورة ، غير مريق ماء وجهه ولا ماد يده الى احد من بني جنسه في طلب ما يستعين به على قضاء حاجته ، فيعيش معزز الجانب محترماً في اعين القوم لا سيما وقد اصبح ذو المال في هذا العصر صاحب القدح المعلى في الاحترام والتجلة ، مصداقاً لقول الشاعر العربي

اذا كنت ذا ثروة في الورى فانت المعظم في العالم

ويمكنه ايضاً ان يرقي افكاره بمطالعة الكتب المفيدة ، وقراءة الصحف والمجلات العلمية ، فيعرف حينئذ لذة العيش ويقدر نعم المولى التي انعم عليه بها حق قدرها ، ويخدم امته بنشر ما وصل اليه مبلغ علمه بين افرادها ، فيعود ذلك عليه بكثير من الفوائد الجزيلة

وفي الناس العالم الكبير ، والحكيم العظيم ، والخطيب المصقع ، والسياسي المحنك ، والكاتب البليغ المتفنن واغلبهم من المحتاجين الذين نفدت اموالهم في الملاهي ولم ينظروا نظر الخبير باحوال الحياة وما ينبغي ان يدخر للزمان ونوبه ، وهم يودون نشر ما سمحت به قرائحهم من التآليف الممتعة النافعة فيقف في سبيلهم مانع كبير وحائل قوي : هو قلة اموالهم التي لا تكفي لهذا الغرض ، فيجنون بذلك ذنباً كبيراً على انفسهم وعلى المجتمع الانساني ، ولولا ان بعض انصار الادب يمدونهم بما يحقق آمالهم لاستولت على تلك اللآلئ السنية ايدي الضياع ، وعاش هؤلاء الرجال تحت الضيم والذل ، وعذاب الفاقة والفقر :

« حياة بلا علم حياة ذميمة وعلم بلا مال كلام مضيع »

ولرب معترض يسأل : « كيف يكون هذا مع العلم والحكمة المودعة نفوس اولئك الرجال » . فالجواب على ذلك نقول : كما ان العلم والحكمة

هما سببان من اسباب السعادة في الحياة وبهما يهتدي المرء الى السبل القويمة من بواعث شقائه اذ ربما يولدان في نفسه الغرور والانانية والخيلاء فيكون حينئذ عقله او علمه مفتاحي شر ، ومطيتي خسر ، وان لم تكن نفس الحكيم او العالم مرباة تربية فلسفية صحيحة وموقفة منذ الصغر على اسرار العالم ومهذبة احسن تهذيب فان حكمته وعلمه لا يجديانه نفعاً ولا يغنيان فتيلا ، لانه يجد نفسه تدفعه الى منازل البؤس التي لا تطل عليها شمس السعادة فيسير اليها مكرها — وهو يعرف ان فيها شقاءه — بغلبة النفس الامارة بالسوء التي لم يزجرها من اول شبابها فاعتادت الجموح الى اهوائها فغلبت العقل !

« والنفس كالطفل ان تهمله شبّ على * حب الرضاع وان تفطمه ينفطم »

وتلقاه كذلك يعظ ويسدي النصح وهو مع ذلك يرتكب ما يخالف عظاته ويضاد نصائحه ، فالتربية هي القالب الذي تصاغ فيه نفس الانسان وعليها يتوقف فوزه او فشله في جهاد الحياة ، فلو كان ذاك القالب جيد الصنع بهي الرونق جميل الشكل كانت نفس المربى جامعة لكثير من الغرائز الثابتة الحسنة غير قابلة للتحول عنها ، وان الانسان العالم الذي يكون ذا تربية فاسدة ليشبه الصندوق القديم الذي اخلقه الزمن وهو مدهون بصبغ اكسبه ظاهراً بهجا وباطناً سمجاً ، فكما ان هذا الصندوق لا يصلح لان تودع فيه نفائس الاشياء ، كذلك هذا الرجل ولو ان العلم يزينه فانه يشاهد نفسه نائياً عن موارد السعادة غير قادر على ان يكرع من منهلها العذب

والعالم احوج الناس الى المال لتنفيذ اغراضه واسعافه بمقاصده التي ترمي الى خدمة الانسانية وتقرير الحقائق وبث روح الغيرة والوطنية في

الافئدة والقلوب . ولطالما رفع من قدر كثيرين من العلماء ووضع من قدر آخرين . يدلك على ذلك ما تراه من تبجيل الناس بيننا لفئة من العلماء دون غيرها فاذا دققت في البحث وجدت ان علة ذلك هو توليتهم المناصب العالية وتقلدهم زمام الاعمال الكبيرة النافعة مع مالهم من عز وجاه استعانوا به على طبع ما وضعوه من الكتب فزادهم ذلك مهابة . ونضرب لك مثلا لهذا عند الغربيين الحكيم تولستوي فانه لم يدع صوته جهيراً والناس واعين لنفثات اقلامه معجبين بكلامه الى هذا الحد سوى ماله ونضاره الذي اظهره بمظهر علي مع انه يوجد بين المنازل المظلمة والاكواخ الحقيرة كثيرون ممن عبست وجوههم يفوقونه في علمهم وحكمتهم وسمو خيالهم وبعد تصورهم ولكن الفقر نكس ابصارهم وهدّ اركانهم وطأطأ من اشرافهم وحط من همتهم فلم يقرع آذان الملأ رنين كلامهم البليغ وحكمهم الغالية التي يتمثل فيها اجمل المعاني واصدق الشعور والوجدان

وكما ان الاقتصاد في المال — تلك القوة التي يرهبها كثير من الناس — ضروري للافراد فهو كذلك للامم ، وانك لتقرأ في كتب التاريخ كثيراً من الادلة والبراهين التي تقرر ذلك وخصوصاً في تاريخ هذه الامة . والشعب الذي لا يعنى قادته بالاقتصاد في امواله لا بد ان يثقل عاتقه الديون فيزول ماله من المجد ويرخي الجهل عليه ستاراً كثيفاً قلما يزحزح الا بعد وقت مديد . هذه قاعدة مطردة تسير مع الدهر ولا تتغير باختلاف العصور .

وقال المتنبي حين مدح كافوراً الاخشيدي

« فلا ينحلل في المجد مالك كله * فينحل مجد كان بالمال عقده »

« فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده »

قال تعالى في كتابه العزيز . « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » . وقال علي بن ابي طالب « ماعال من اقتصد » . ومن امثال العرب . « اقتصد في الدراهم ، فانها لجرح الفاقه مراهم »

فحري بالآباء وولاة الامور وكل فرد اديب خصه الله بشيء من الحكمة ان يكون مقتصداً في ماله ، وان يبث هذه الفضيلة — فضيلة الاقتصاد في المال — بين اولاده وعشيرته بل بين جميع الناس حتى تعمهم السعادة ويذوقوا لذة النعيم وهناء الحياة . اهـ .

احمد زكي ابو شادي

(الانيس) ان الذي يشير اليه حضرة الكاتب من وجوب غنى اولي العلم في الشرق انما هو على جانب كبير من الصواب ولكننا نأسف لانه صواب من حيث الجملة لا من حيث التفصيل وبالتالي هو صواب في اوربا واميركا واما هنا فلا وذلك لان الاديب عندنا حين يصيبه طل من الغنى يترك الادب جملة فلا كتاباً يطبع ولا رسالة ينشر ولا اديباً يعين لا لانه اذ هو شرقي يعد مفطوراً على هذا الخلق بل لانه لا يجد في خدمة الادب فائدة مادية له يرتزق بها او يزداد بها غنى على خلاف الاديب الاوربي فانه كلما ازداد غنى ازداد ادباً حتى يصير كلما ازداد ادباً ازداد غنى وذلك لانه يرى من ادبه الزائد تجارة دائمة ورزقاً واسعاً فهو ينفع الناس بادبه من طريق التجارة المحضة فلو كان الاديب الغني عندنا يطبع كتابه فيستفيد منه فائدة تذكر فانه لا يتأخر عن ذلك كما ان الاديب المعسر لا يتأخر عن الاقتصاد وتوفير الاموال ليكون فيما بعد غنياً واديباً في آن واحد . وانظر

الى حال الجرائد عندنا فان بعض اصحابها يخدمون انفسهم خدمة تجارية كبيرة ويخدمون الادب في اثناء ذلك خدمة جلى لان تجارة جرائدهم رائجة فهم بهذا على حد ادباء اوربا تماماً واما الشعراء والكتاب والمصنفون في شتى العلوم فليس على كتبهم شيء من هذا الاقبال الا ان يكون بطريق الحيلة او الاستجداء

وعدا هذا فان نيل الغنى على كل حالة لا يخلو مما يشين صاحبه كأن يشح ويفرط في التوفير او يكذب ويخدع ويتملق وكل هذه صفات ينفر منها اولو العلم لما يودعه العلم في نفوسهم من التعالي فترى الواحد منهم يأنف ان يكون ذا مهنة مهما كانت رائجة او صاحب دكان مهما اتسع الرزق منه ولذلك تجد هذا الخلق مما يضيق عليهم ارزاقهم ويوسع مجال كرامتهم فكأنهم يقولون هذه بتلك او « لنا علم وللجهال مال » ولكن الظاهر من الحال الحاضرة انها تبشر بسعة وادب يجتمعان فتكون السعة سبب التوفير وليس التوفير سبب السعة على حد اصحاب بعض الجرائد كما قلنا فانهم ما ادخروا حتى اغتنوا ولكن نهضة اقبال اصابتهم فاغتنوا حتى ادخروا ولعل ما اصاب الصحائف مما يصيب الكتب لانها وتلك شيء واحد ولولا ان الانسان مولع بالحاضر وبهزل العلم اكثر من جده لمشت الصحف والكتب جنباً الى جنب واغتنى رجال كليهما في آن واحد